

تصادم عبقريتين

(الصراع بين أبي جعفر المنصور وأبي مسلم الخراساني)

يقف مدونو التاريخ الإسلامي وقفات طويلة حيال الخلاف المشهور الذي ثار بين أبي مسلم الخراساني وأبي جعفر المنصور وأسفر عن قتل أبي مسلم ، ويكثرون من تفصيل حوادثه ، واستقصاء أسبابه ، وسرد مختلف الروايات التي تدور حوله ، وتتصل به . وعذرهم في ذلك واضح مقبول . فقد كان الرجلان من الشخصيات النابهة المنيفة التي ارتبطت بتاريخها حوادث عصرها أشد ارتباطا . وأبو جعفر هو رجل العباسيين الذي ثبت لهم الخلافة وأرسى قواعد الملك ، وكان واحد عصره في قوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ، ونفاذ النظر ، وإحكام التدبير . وأبو مسلم نادرة من نوادر التاريخ ، ونتاج غريب لاحتكاك الإسلام بالحضارة الفارسية ، وقد انحدر — في بعض الروايات — من صلب بزرجهر بن البختكان وزير كسرى أنوشروان ، وإذا صح ذلك فهو من أصل فارسي شريف تلتهب فيه الروح الفارسية تحت غلالة الإسلام ، وتلمح في تصرفاته سطوة الأرستقراطية وقسوتها ودهاؤها وشمائل الملك وعزة السلطان . وقد استطاع بصادق حماسته ، وبارع قيادته ، وفائق تدبيراته ، أن يغير مجرى التاريخ

الإسلامي ويضرب ملك بني مروان الضربة القاضية ، ويرفع على أنقاضه بيت بني العباس . وقد تمكن من إنجاز ذلك كله قبل أن تبلغ منه الخامسة والثلاثين .

وقد كان في بني العباس طموح ودهاء وحرص على طيبات الدنيا وتزوع إلى السلطة وخبرة جيدة بالدوافع الإنسانية . وقد أحسنوا تدبير الدعوة واختيار الأرض العذراء الصالحة لاستنبات بذورها ، وعرفوا الفرصة المناسبة لظهورهم والجهرب دعوتهم . ولم تكن فيهم تلك النزعة الصوفية المشوبة بالزهد والعجز في الحياة العملية التي تميز بها العلويون ، وجرت عليهم الإخفاق في كل محاولة ، وصيرت تاريخهم سلسلة من المآسي المفجعة تستوجب الأسف ، وتستدر الدموع ، وجعلت الرجال العمليين يقعدون عن نصرتهم ، لأنهم لم يجدوا عندهم إيالة الملك ولا صيانة المال ولا مكيدة الحرب كما قال أحد هؤلاء الرجال العمليين وهو الأحنف بن قيس . ولكن كان ينقص بني العباس القائد الحربي الموهوب المتدرب على وضع الخطط وتدبير المعارك وتنظيم القيادة . وقد أصابوه في أبي مسلم . فلولا براعته الحربية وأساليبه العجيبة لأفلتت منهم الفرصة ، ولما أمكنهم أن يبتزوا ملك الأمويين وعلى رأسهم خليفة من أقدر رجالهم مثل مروان ابن محمد الذي لم تغض الهزيمة من مزاياه الحربية ، ولم يستغ التاريخ أن ينكر عليه همته العالية ومواهبه الممتازة .

والذي يتدبر أخلاق هذين الرجلين — المنصور وأبي مسلم — يعرف

أنهما شخصيتان قدر لهما أن يتصادما ، فكلاهما أنانى إلى أقصى حدود
الأنانية لا يطيق أن يرى إلى جانبه منافساً في نفوذه أو قسياله في ملكه ،
وكلاهما مكيا فلي من فرعه إلى أخمصه ، لا يعرف معنى للعواطف النبيلة أو
المبادئ السامية إذا وقعت حجر عثرة في سبيل أغراضه ، فأبو مسلم لم يتورع
عن الإسراف في القتل على الشبهة ، والغدر بأصدقائه وأعدائه على السواء ،
والمصور أول من قتل في الإسلام على الملك عمه وابن أخيه ، وأظهر قسوة
بالغة في معاملته لأبناء عمه العلويين .

وكان أبو جعفر متبحراً في دراسة الفقه الإسلامى ، وكان لهذه الدراسة
تأثير كبير في تكييف عقله وصقل تفكيره ، وقد مكنته من أن يدرك في
سهولة أوجه الشبه بين الأشياء دون أن تغيب عنه اختلافاتها الدقيقة ،
وشجعت رغبته في البحث والتقصى ، والصبر على الشك ، والترث في
التفكير ، والاستعداد للمراجعة . وقد كانت حاسة النظام والترتيب في
نفسه أقوى من حاسة إدراك الجمال ، ولم يكن بطبيعته شديد الميل إلى النساء
والتهاك على اللذات ، ولم يكن غالباً في التأنق ، ولا شديد الولوع بالشعر ، فإن
أعجب بشيء منه فإنما يعجب بالجانب التعليمى فيه وبما قد يتضمنه من
مأثور الحكم وناضج التجارب ، وما يمكنه أن يستخرج منه درساً سياسياً
أو قاعدة عملية ، وكما زادت دراسة الفقه استقامة في التفكير وأناة في
إصدار الأحكام فكذلك طول صحبته للعلماء زادت به بدءاً عن الإسراف
في الترف ، والانغماس في اللهو .

وكانت نشأة أبي مسلم سياسيةً عمليةً خالصة . وقد جمع بين براعة
السياسي ومهارة القائد . وكان ينظر إلى أبي جعفر نظرة متأثرة بذلك
الازدراء الخفي الذي يضمه رجال العمل وأبطال الميادين للعلماء ، وهذا
الاحتقار المستور كثيراً ما يعمى أبعاد الناس نظراً وأصدقهم فراسة عن
مشاهدة مزايا الغير وتقدير مواهبه . ولذلك لم يتيسر لأبي مسلم تقدير
أبي جعفر تقديراً دقيقاً ، ولم يستطع وهو في ريعان نفوذه ، وعنفوان
انتصاره ، أن يدرك أن هذا الرجل هو نابغة قومه ، وبقعة عصره . ورجل
العمل والكفاح في حاجة ماسة إلى أن يكون معلمه من طراز أرسطو معلم
الإسكندر أيوقر العلماء . ولم يلق أبو مسلم بالله إلى تأثير الحوادث في المنصور
وكيف أفاد تجربة وحنكة . ولقد عاش أبو جعفر في الظل والخفاء وعاش
في الضوء الساطع ، وعلمته الإقامة في ذلك المنفى البعيد عن الحضارة بتلك
القرية النائية المشرفة على الصحراء السماة الحميمة أن يطيل التفكير ويجيد
وزن الأمور . وإذا كان الأنبياء المرسلون يخرجون إلى العالم من أعماق
الوحدة والنواحي المهجورة فلا مانع من أن تكون تلك القرية الموحشة
مدرسة للسياسيين الملمهين ، والسياسة ضرب من الفلسفة العملية تشترك فيه
التجربة والتفكير والبداهة والبصيرة ، ومن نظر إلى الحياة من أعاليها
وأعماقها ، وذاق حلوها ومرها ، لا تزدهف لبه ابتسامات المائق ، ولا تطير
به الوشايات والنمائم لأنه تعود مراجعة النفس وألف الحذر .

وأول ما وقع في نفس أبي جعفر من أبي مسلم وكان له تأثير في مستقبل

العلاقات بينهما هو ما كان من رسول أبي مسلم لما قدم على أبي العباس عند بدء ظهوره واستعلان أمره ، فقد دخل عليه الرسول لتبليغ تحية أبي مسلم وتقديم تهنئته ، وكان أبو العباس جالساً مع أبي جعفر وجماعة من وجوه بني العباس ، فسأل الرسول : « أيكم ابن الحارثية ؟ » وكانت أم المنصور جارية بربرية اسمها سلامة . وكان أخوه أبو العباس أصغر منه سناً ، ولكن إبراهيم الإمام أوصى له بالخلافة وآثره بالأسبقية لأن أمه عربية حرة ، ولا نزاع في أن هذا التفضيل المقصود كان يحز في نفس أبي جعفر الذي كان يعرف قيمة نفسه ويرى أنه أحق بالخلافة وأقدر على النهوض بأعبائها من أخيه اللين المستضعف . وقد نكأت كلمة رسول أبي مسلم هذه القرحة في نفس أبي جعفر ، وهي في تقديره إهانة لا يغتفرها رجل مثله شديد الحقد الداء .

أوفده بعد ذلك الخليفة أبو العباس إلى خراسان ، وكان السبب الظاهر لذلك هو أخذ البيعة من أبي مسلم لأبي العباس ولأبي جعفر من بعده ، وكان السبب الباطن هو الرغبة في اختبار أحوال أبي مسلم وسبر غوره ، لأن خيانة أبي سلمة الخلال ومحاولته نقل الخلافة إلى العلويين عقب مجيء الأخبار بوفاة إبراهيم الإمام أثارت شكوك العباسيين وجعلتهم يستقربون رجال دعوتهم ويحرصون على الاستيثاق من إخلاصهم . وكان لهذه الرحلة تأثير كبير في نفس أبي جعفر ، فقد رأى بعينه قوة نفوذ أبي مسلم ، ولمس عن قرب سعة سلطانه ، ومدى سطوته ، وتعاق أصحابه به وتفانيهم

في طاعته . ويظهر أن أبا مسلم لم يوفه حقه من الرعاية ، واستخف به بعض الاستخفاف ، واتفق في أثناء وجود أبي جعفر هناك أن أبا مسلم اشتبه في سليمان بن كثير كبير نقباء خراسان فدعاه إليه وقتله دون أن يستشير في ذلك أبا جعفر أو يرجع إلى رأي الخليفة . فلما عاد أبو جعفر أفضى إلى أخيه بمخاوفه من استفحال نفوذ أبي مسلم ، وزين له الخلاص منه ، ولكن أبا العباس كان يستعظم الإقدام على ذلك ويخشى عواقبه فلم يعمل برأيه ، وأرسله إلى واسط ليتولى تضيق الحصار على ابن هبيرة ، وأبلى أبو جعفر في هذه المهمة بلاءً حسناً حتى اضطر ابن هبيرة إلى طلب الأمان ، وجرت السفراء بينهما ، وجعل له أبو جعفر أماناً وكتب به كتاباً مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء ردحاً من الزمن حتى رضيه واطمأن إليه ، ثم أنفذه إلى أبي جعفر ، فأنفذه إلى أبي العباس فأمره بامضائه . وكان من رأى أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه ، ولكن أبا العباس استشار أبا مسلم ، وكانت فرصة لتوهين رأى أبي جعفر فأشار على أبي العباس بقتله لأن الطريق السهل إذا أقيمت فيه الحجارة فسد ولا يصلح طريق فيه مثل ابن هبيرة . وعارض أبو جعفر في ذلك معارضة شديدة ، فألح عليه أبو العباس حتى اضطر إلى تنفيذ أمره ، واستطاع أبو مسلم في هذه المعركة أن يتغلب على أبي جعفر ، ويبرزه ملوثاً بدم الغدر موصوماً بنقض مبرم العهد . ووجه أبو العباس أبا جعفر في عقب ذلك والياً على الجزيرة ، وكانت بينه وبين أهلها وقعات وحروب شديدة ، ثم صالحوه ، واستقام أهل

الجزيرة ، وحدثت هدنة اضطرارية بين الرجلين انصرف في خلالها كل منهما إلى معالجة شؤون ولايته وإخاد الفتن ورتق الفتوق . وبعد انقضاء أربعة أعوام عاد الخلاف بينهما على أشده ، وذلك لأن أبا مسلم كتب إلى الخليفة أبي العباس يستأذنه في القدوم عليه للحج ، وكان ما يرمى إليه من وراء ذلك هو أن يظفر بشرف ولاية الحج توطيداً لمركزه وتوسيعاً لنفوذه ، وأدرك أبو العباس قصده ورأى في ذلك ما يزيده علواً وتمكيناً . وبعد إعمال الفكرة للحيلولة دون ذلك كتب إلى أبي جعفر يستحثه على أن يستأذنه في الحج حتى لا يطمع أبو مسلم في تقدمه عليه ، ورحب أبو جعفر بهذه الفرصة التي عنت له لمراغمة خصمه ، فلبى الطلب وكتب الرسالة ، ولما علم أبو مسلم بذلك اضطفتها على أبي جعفر .

وقدم أبو مسلم الأنبار فأمر الخليفة أبو العباس أن يتلقاه القواد وأعيان الدولة وسائر الناس ، وأعظمه وأكرمه ، وقدم أبو جعفر من الجزيرة ، واتفق في أثناء وجودهما بالأنبار أن دخل أبو مسلم على أبي العباس وأبو جعفر حاضر ، فسلم على الخليفة أبي العباس ولم يسلم على أبي جعفر ، فاسترعى الخليفة التفاته إلى أبي جعفر فقال أبو مسلم « إني قد رأيتك ولكن هذا مقام لا يقضى فيه حق غيرك » وهو تخلص لبق اكتفى به أبو العباس الذي كان لا يرى كبير بأس في بقاء ما بين هذين الفحلين متباعداً ، وعاد أبو جعفر يلح على أخيه في ضرورة القضاء على أبي مسلم ، وأغراه باغتياله ، ولكن أبا العباس كان لا يزال يتخوف الإقدام على ذلك .

وسارا بعد ذلك في طريقهما إلى الحج ، وكانت مباراة محتدمة ومنافسة مكشوفة ، استطاع أبو مسلم أن يكون فيها أبعد صوتاً وأخلب مظهرأ من أبي جعفر ، فقد تحرى استصلاح الطريق وحفر الآبار ، وكسوة الأعراب ، وأغدى عليهم العطايا ، وتعهدهم بالطعام ، ولم يكن أبو جعفر بطبيعته ميالا إلى الجود ، واجتذاب القلوب ، وكان يؤثر على الدوام أن يكون مخشى الجانب مرهوب السطوة ، ولما صدرا من الحج ترامت إليهما الأنباء بوفاة الخليفة أبي العباس ، فدعا أبو جعفر الناس إلى البيعة ، وبايعه أبو مسلم بعد تلكؤ يسير ، وأظهر أبو جعفر لأبي مسلم تخوفه من شر عمه عبد الله بن علي وشيعته . ولما أخذ عمه البيعة لنفسه أشار أبو جعفر على أبي مسلم بالتوجه إلى قتاله لأن عامة جنده ومن معه من خراسان . وكان أبو مسلم يحاول جهده الإسراع في العودة إلى خراسان ، ويؤثر أن يخلى ما بين أبي جعفر وعمه عبد الله ، وكانت الحججة التي أبدأها للمنصور هي أن أمر عبد الله قليل الخطر ، وأن أمر خراسان أعظم شأناً وأهول خطراً مما يستدعى بقاءه هناك . ولكن أبا جعفر ألح عليه ، وأغرى بعض رجاله بتحويله عن رأيه حتى قبل أخيراً التوجه لإخماد حركة عبد الله ، وقد استلزم القضاء عليها مجهود ستة أشهر انتصرت في نهايتها حركات أبي مسلم الموقفة القوية على حركات عبد الله الضعيفة . وفي خلال هذه المدة أتم أبو جعفر تدبير الخطة للقضاء على أبي مسلم . ولم يكن أبو جعفر يجهل حاجته إلى قائد عظيم ووزير قدير مثل أبي مسلم ، والدولة في طاعة أمرها ، والمتربصون بها كثيرون ،

والطامعون فيها لا يخلون من قوة وبأس ، وكان يعرف أن أبا مسلم هو مدير المؤامرات الناجحة ، ورأس الخطط المشعة ، ولكنه وازن بعقله الحساب بين الضرر والمنفعة ، ولما قطع بالرأى لم يتردد فى العمل على تنفيذه لأن الرجل كان لا يعرف الهوادة ، ولا تغلبه العاطفة فى مواقف الخطورة ومواطن الجد . وقد كان أبو مسلم كلما سما مقامه ، وطمع نفوذه ، أصبح خطراً كبيراً على نفوذ الخليفة ، فليس هو الآن منقذ بيته ، ورافع دعائم ملكه ، والحاجز المنيع ضد الثورات ، وإنما هو مناظر مخوف الجانب يستطيع أن يفسد عليه أمره ويسلبه ملكه ، وكان المنصور قد حكم منذ زمن على أبى مسلم بالإعدام بينه وبين نفسه وهو حكم أنتجه التفكير الهادى والمنطق الذى لا يرحم ، وزادته الأيام إيماناً بصحة ذلك الحكم وضرورته .

وكان أبو مسلم خلال أداء تلك المهمة التى أناطها به المنصور — وقبلها مضطراً كارهاً — ناقماً على المنصور ، ولم يستطع أن يقمع استخفافه به وموجدته عليه ، فكان يأتيه منه الكتاب فيقرؤه ثم يلوى شدقه ويرمى بالكتاب إلى صديقه الحميم أبى نصر — مالك بن الهيثم — فيقرؤه ويضحكان استهزاء . وقد ساء ذلك القائد البارع الحسن بن قحطبة فأرسل إلى أبى أيوب المورىانى وزير المنصور رسالة شفوية ضمنها ارتياحه بأبى مسلم .

وكان المنصور يحاول الآن — وقد انتوى إزاحة أبى مسلم من طريقه — ألا يبدو قتله فى صورة الغدر الأثيم والخيانة الصارخة . والوسيلة الوحيدة

لذلك هي أن يستفز إياه ، ويثير غضبه حتى يخرج عن طوره ، ويجد المنصور إذ ذلك مسوغاً لقتله أمام أتباعه . فلما انهزم عبد الله بن علي وكتب أبو مسلم إلى المنصور بذلك أرسل المنصور رسولا من قبله لإحصاء الغنائم وتحصيل الأموال ، وكان يعلم ما في ذلك من الإساءة إلى أبي مسلم الذي تعود الاستمتاع بالسلطة المطلقة بلا رقيب ولا حسيب . فلما قدم عليه الرسول وعلم بمهمته لم يستطع أن يكظم غضبه ، وبسط لسانه في أبي جعفر وهم بقتل الرسول لولا تدخل أصحابه . فعاد الرسول إلى أبي جعفر وأخبره بذلك . وكان المنصور يحاول جهده أن يحول بينه وبين خراسان ، فأرسل إليه رسولا آخر معه كتاب يخبره فيه بأنه قد ولاء مصر والشام وأنهما أحسن له من خراسان ، وأن يوجه إلى مصر من يشاء من قبله ويقم هو بالشام ليكون قريباً من الخليفة ، فلما جاءه هذا الكتاب عرف غرض أبي جعفر وغضب واعتزم المضي إلى خراسان ، وأقبل من الجزيرة مجماً على الخلاف . والواقع أن أبا مسلم كان قد تعود السلطة وأن يقطع برأيه ويتصرف بحسب هواه ، وأن يأمر فيطاع ويستشار ويستنصح فيعمل بمشورته ، ويؤخذ بنصيحته ، ولم يكن يستطيع الآن أن يصانع ويتملق ، ويخطب الود ويلتمس الرضى ، وغير غريب أن يتحدى ويفاضب . ومن الصعب على الإنسان أن يصل إلى ذروة السلطة المطلقة والسيطرة الكاملة على الناس ثم يتنازل عن ذلك كله في يسر وسهولة وعند أول إشارة . وقد تحول الأمر بأبي مسلم من عدم الاكتراث لأبي جعفر

إلى العناد والإصرار ، ومن العناد والإصرار إلى التحدى الظاهر ،
والمخالفة الصريحة ، وقد زاده الانتصار الأخير اعتزازاً برأيه ، وإدلالاً
بمكانته ، وشدة شعور بعظمة شخصيته . وكان المنصور من ناحية أخرى
يريد النظام ، ويأبى الفوضى في أية صورة من الصور ، ومثل هذا الرجل
لا يطيق أن يرى مناظراً له في سلطانه ، ولا يسمح بأن يعيش في ظل
ملكه الوريث معارض واحد هادىء البهال مصون الدماء .

وخرج أبو جعفر من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم في السير
إليه ، فكتب إليه أبو مسلم وقد نزل الزاب وهو على الرواح إلى طريق
حلوان : « إنه لم يبق لأمر المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه ،
وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا
سكنت الدهماء ، فنحن نأفرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك
ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها
السلامة ، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن
تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضمناً بنفسى »

ولما وصل هذا الكتاب إلى أبي جعفر كتب إلى أبي مسلم : « لقد فهمت
كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين
يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، وإنما راحتهم في انتشار
نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك
واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت عليه ؟ وليس مع

الشريعة التي أوجبت منك سماع ولا طاعة ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغانه وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك » . واختار أبو جعفر من رجاله أبا حميد المروزي ليحمل الكتاب إلى أبي مسلم ورسم له الخطة التي يسلكها بعد تقديم الكتاب ، وهي أن يبدأ فيكلم أبا مسلم بألین كلام ، ويلوح له بالعود ويمنيه الأمانی ، ويستفرغ في ذلك جهده ، ويحذره عاقبة البغي ، فإن أصر على المخالفة ، وصرح بالعصيان ويثس منه يبلغه هذه الرسالة الشفوية وهي إن أمير المؤمنين يقول له « لست لآعباس وأنا بريء من محمد إن مضيت مشاقاً ولم تأتني إن وكلت أمرك إلى أحد سواي وإن لم آل طلبك وقتالك بنفسی ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك » وأوصى المنصور من حضر من بني هاشم أن يكتبوا إلى أبي مسلم يعظون أمره ، ويشكرون ما كان منه ، ويحذرونه عاقبة الغدر ويأمرونه بالرجوع إلى أمير المؤمنين وأن يلتمس رضاه .

وسار أبو حميد في جماعة من أصحابه ممن يشق بهم حتى قدموا على أبي مسلم بجلوان ، فدخل أبو حميد ومعه أصحابه ودفع الكتاب إلى أبي مسلم ، وقال له : إن الناس يبلغونه عن أمير المؤمنين ما لم يقله وخلاف ما عليه رأيه فيه حسداً وبغياً يريدون إزالة النعمة وتغييرها ، ونصح له ألا

يفسد ما كان منه ، فكبر هذا الكلام على أبي مسلم لأن أذنه لم تتعود
سماع النصائح ، فالتفت إلى أبي حميد وقال له في كبرياء وأنفة : « متى كنت
تكلمنى بمثل هذا الكلام ؟ » فقال له أبو حميد : « لقد دعوتنا إلى طاعتهم
أفتريد حين بلغنا منتهى أملنا أن تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا ، وقد قلت
لنا من خالفكم فاقتلوه وإن خالفتم فاقتلوني ؟ »

وكان إلى جانب أبي مسلم صديقه الحميم مالك بن الهيثم ، فأقبل عليه
وقال : « أما تسمع ما يقول هذا ! ما هذا بكلامه يا مالك ! »

فقال له مالك : « لا تسمع كلامه ولا يهولنك هذا منه ، وامرئى لقد
صدقت ما هذا كلامه ، ولما بعد هذا أشد منه ، فامض لأمرك ولا ترجع .
فوالله لئن أتيتته ليمتلكنك وقد وقع في نفسه منك شيء لا يأمنك بعده أبداً . »
وأراد أبو مسلم أن يخلو بنفسه فصرف القوم وأخذ يفكر ويقلب الأمر
على وجوهه ، ولما أتعبه التفكير استدعى نيزك وكان موضع ثقته وكانهم
سره . فلما أقبل نحوه نيزك التفت إليه أبو مسلم وهو يحاول أن يتكلف
الابتسام ، ويخفي اضطراب خواطره ، ويتظاهر بقبلة الاهتمام وقال له :
« يا نيزك إني والله ما رأيت طويلاً أعقل منك فما ترى ؟ فقد جاءت
هذه الكتب وقال القوم ما قالوا ؟ » فقال له نيزك : « لا أرى أن تأتيه
وأرى أن تأتي الرى فتقيم بها فيصير ما بين خراسان والرى لك وهم جندك
ما يخالفك أحد ، فإن استقام لك استقامت له وإن أبي كنت في جندك ،
وكانت خراسان من ورائك ورأيت رأيك »

واطمأن أبو مسلم إلى هذا الرأي ، وعول على الأخذ به ، ودعا أبا حميد
وقال له : « إرجع إلى صاحبك فليس من رأبي أن آتبه »
فقال له أبو حميد : « أو قد عزمت على خلافه ؟ »
فقال له أبو مسلم : « نعم »
فقال له أبو حميد : « لا تفعل »
فقال أبو مسلم وقد بدت على وجهه علامات الإصرار : « ما أريد أن
ألقاه » .

وهنا لم يجد أبو حميد بداً من أن يبلغه رسالة أبي جعفر الشفوية . فلما
سمعها أبو مسلم وجم طويلاً ، وأخذت تتكشف له طبيعة الرجل الذي يريد
مخالفته ، وكأنا رفع عن بصره الغطاء في تلك اللحظة ، وأدرك أنه أفرط
في تحدى خليفته ، وكان أبو مسلم يعلم جيد العلم أن سلطان أبي جعفر قائم
على دعائمين قويتين ليس من السهل هدمهما ، وهما قوة الدين وشرف
النسب . وقد حاول أبو مسلم من قبل أن ينتزع جانباً من هذا الشرف
ويخلعه على نفسه وذلك بادعائه أنه من ولد سليط الذي كان ينسبه الأمويون
إلى عبد الله بن العباس نكايه في أولاده ، وبمحاولته مرة أخرى أن يخطب
إلى المنصور عمته أمينة بنت علي . وراعه هذا التهديد المكشوف الذي
يشف عن صدق العزيمة والاستهانة بالخطر . وكان أبو جعفر عندما حاول
استفزاز أبي مسلم قد احتاط للأمر وأخذ يحرك المنافسة والحسد في قلوب

مناظري أبي مسلم وحاسديه ، فكتب إلى أبي داود خليفة أبي مسلم على خراسان يوليه أمر خراسان مابق ، فكتب أبو داود إلى أبي مسلم من رسالة « إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه (ص) ، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه » . ووافاه الكتاب وهو في تلك الحال من تبلبل الفكر وأضعف العزم فزاده هما ورعبا ، وهنا ارتبكت أعصاب الرجل وتحللت عزيمته ، فاستدعى رسول أبي جعفر وصديقه مالكا وقال لهما : « إني قد كنت معتزما المضي إلى خراسان ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين فيأتيني برأيه فإنه ممن أثق به » ولما قدم رسول أبي مسلم على المنصور تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب ، وقال له المنصور : « اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان » وأجازه فرجع أبو إسحاق إلى أبي مسلم وقال له : إنه لم يجد من القوم ما ينكره وإنهم معظمون لحقه . وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان . وكان أبو جعفر قد نجح في أن يهز ثقة الرجل بنفسه ، وأن يعطل قوة رأيه القاطع ، فأجمع على العودة إلى الخليفة لأنه لم يجد بداً من ذلك ، وحاول نيزك أن يثنيه عن الرجوع ، ولكن أبا مسلم كان يشعر بقوة قاهرة تجبره على الذهاب ، ولما أطال عليه نيزك تمثل أبو مسلم قائلا :

مال للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام

فقال له نيزك وقد عجز عن إقناعه ورده عن عزمه : « أما وقد عزمت على

هذا فاحفظ عني واحدة ، إذا دخلت عليه فاقتله ، ثم بايع لمن شئت فإن
الناس لا يخالفونك »

وكتب أبو مسلم إلى أبي جعفر يخبره أنه منصرف إليه ، ولما طوى
أكثر الطريق تلقاه رجل من قواده ، وحذره ، ونصح له بالعودة ، فاشتدت
مخاوفه ، وكثرت هواجسه ، وخايلته فكرة العودة فتردد وتلبث ، ولكن
الشبكة المحكمة لم تمكنه من الإفلات . وأحس الرجل بشدة وطأتها وعجزه
عن النجاة فاستسلم للقضاء ، وكان المنصور الذي لا تنفذ حيله يدس عليه
رجالا ليبلغوه ما ينفى عنه الوسوس ويوحى إليه الطمأنينة ، ولما شارف
المدائن أمر المنصور الناس فتنقلوه ، واحتفى بمقدمه القواد والرؤساء وأعيان
العباسيين . ولما دخل المدائن كان النهار قد أدير وأرخى الليل سدوله ،
وجلس أبو جعفر ينتظر قدومه وقد حفه صمت عميق ووقار رهيب ، ودخل
أبو مسلم على المنصور وسلم ، والتقى الرجلان وجهاً لوجه على ضوء الشموع
وكان أحدهما وهو المنصور أسمر اللون رقيق السمرة ، طويلًا نحيفًا خفيف
العارضين عليه أبهة الملك وجلال النسك ، وكان الآخر—وهو أبو مسلم—
قصيرًا أسمر أحمور العين عريض الجبهة ، وافر اللحية ، ساهم الوجه ، شارد
الفكر ، يحاول جهده أن يتأسك ويتجلد ، ولم يغب عن عين المنصور ما يعانیه
أبو مسلم من الاضطراب الخفي فتلطف معه ، وترفق به ، واحتفى بمقدمه ،
وتهللت في وجهه المهيب الدائم العبوس تلك الابتسامات التي يتخذها
الساسة قناعا يسترون به مبهم النيات ، وخفي الأغراض . ولم يطل قيام

أبي مسلم ، فقد أذن له الخليفة بالانصراف لينفض عنه غبار السفر ويرتاح من وعثائه ، وقد حاول كل منهما في خلال تلك اللحظات القصار التي قضياها معاً أن يتغلغل بنظراته الحادة إلى سريرة صاحبه ، وخرج أبو مسلم وقد ذهب به الفكر كل مذهب ، ولعله لم يشعر في تلك الليلة بما حفلت به المدائن من أصوات البشائر ، وبما أقيم لقواده ورجال حاشيته من الولائم والحفلات ، وآوى إلى فراشه مبكراً ، ونستطيع أن نتصور أبا مسلم في تلك الليلة متمملاً فوق فراشه لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال ، ولم تستطع مظاهر الحفاوة والتكريم التي قوبل بها أن تبديد مخاوفه وتنفى عنه الأفكار السود ، وأخذت كلمات التحذير التي قالها له صديقه أبو نصر وصاحبه نيزك تدوى في أذنه دويًا متصلًا ، وترن رنينًا محزنًا ، ولعله أخذ يعجب من نفسه وكيف جاء إلى المدائن وسعى إلى حتفه ، وكيف خذلته شجاعته والتوى عليه الرأي وهو الجندي الباسل والسياسي الخطير . وكان يشعر بعزلته وأنه وحيد في عالم غريب ، وأن الخطر الذي يهدد حياته قد صار على كثر منه . ولما مضى الهزيع الأول من الليل هدأت الحركة في المدائن ، وهمدت الأصوات ، واران الكرى على الجفون ، ولكن بقي رجالان ساهرين ، أحدهما أبو مسلم الذي كان يفكر في مصيره وما تخبئه له الأقدار ، ويمحشى أن يفدر الخليفة بأقدر رجاله وأعقل وزرائه ، والآخر المنصور وقد أخذ يلوم نفسه لأنه لم يهتبل الفرصة ويقتل أبا مسلم عندما ملاً عينيه منه ، ويريح نفسه ويشفي غلته ، وصار يستطيل الليل ويرقب تبشير الصباح في قلق وحذر .

ولما أقبل الصباح استدعى المنصور أربعة من رجال حرسه الأشداء ،
وعرفهم بالمهمة الموكولة إليهم ، فهاهم الأمر ، ولكنهم لم يجترئوا على المخالفة ،
وأوصاهم بالوقوف خلف الرواق وأن يبرزوا إذا ارتفع صوته وصفق بيديه
ويقتلوا أبا مسلم .

وأصبح أبو مسلم متعباً حزيناً لما عاناه من أرق وتسهيد ، وما ساوره
من أفكار وهموم ، وكانت بينه وبين عيسى بن موسى ابن أخي المنصور
صداقة ومودة ، فأتى منزله وتناول عنده الغداء ، وفي خلال الحديث
أنشد عيسى :

سيأتيك ما أفنى القرون التي مضت

وما حل في أكناف عاد وجرهم

ومن كان أنأى منك عزاً ومفخرأ

وأنهم — بالجيش اللهم العرمم .

فالتفت إليه أبو مسلم وقد امتقع وجهه وقال له : « هذا مع الأمان
الذي أعطيت ؟ » فقال له عيسى : « أعتق ما أملك إن كان هذا لشيء من
أمرك وما هو إلا خاطر أبداه لساني » فقال أبو مسلم : « فبئس الخاطر والله
إذن » . وبعد قليل وافاه رسول الخليفة يدعو إلى الحضور ، فقال له عيسى :
« لا تعجل بالدخول حتى أحضر وأدخل معك » . فأبطل عيسى بالوضوء ،
ومضى أبو مسلم ، فلما هم بالدخول على الخليفة جرده البواب من سلاحه ،
فدهش لذلك ، ولما مثل بين يدي الخليفة شكاً إليه ما صنع به فطيب

المنصور خاطره ، وأقبل بعد ذلك عليه يعاتبه ، ويحصى عليه ذنوبه ،
وينعى عليه زلاته ، وشدد النكير على سلوكه نحوه ، وكيف كان يتقدمه
في طريق الحج ، وكيف كان يكتب إليه فيبدأ بنفسه ، وكيف أقدم على
قتل سليمان بن كثير مع بلائه في دعوتهم ، وكان أبو مسلم يرد على ذلك
بكياسته اليهودية ، ولما أكثر عليه المنصور أخذته العزة فقال له : « لا يقال
لى هذا بعد بلائى فى دولتكم وما كان منى » . فغضب المنصور وقال له :
« لو كانت أمة مكانك لأجزت ناحيتها ، إنما عملت ما عملت فى دولتنا
وبريحنا ، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتىلا » وسبه بعد ذلك وذكره
كيف تطاول إلى خطبة عمته وادعى أنه من ولد سليط ، وغلت مراجل
المنصور ، وانفتقت فى نفسه شهوة الانتقام ، ولاحت فى عينه بوارق الغضب
والحقد ولوايح الغدر ، وأدرك أبو مسلم خطورة الموقف فأخذ يعرك يده
ويقبلها ويحاول تهدئة ثأثرته ، وتزايد غضب المنصور وصفق بيديه فبرزت
الرجال بالسيوف ، ولم تزد أول ضربة على أن قطعت حمائل سيفه فقال :
« يا أمير المؤمنين استبقنى لعدوك » فقال له المنصور : « لا أبقانى الله إذن
وأى عدو أعدى لى منك » وصاح برجاله : « اضربوا قطع الله أيديكم »
ولما توالى على أبى مسلم الطعنات خارت البقية الباقية من شجاعته ،
وانطوى إباؤه ، وارتجف من الموت هذا الرجل الذى أذاق الألوف طعم
الموت وجرعهم مرارته وصار يلتمس العفو فى ذلة وضراعة حتى عجب
المنصور وقال له : « العفو وقد اعتورتك السيوف »

ووقف المنصور أمام فريسته كالوحش الضارى ينشد :
زعمت أن الدين لا يقتضى فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأساً كنت تسقى بها أمر فى الخلق من العلقم
ودخل بعد ذلك عيسى بن موسى ، وسأل عن أبى مسلم فقال له المنصور :
« ها هو ذاك فى البساط » فأبدى عيسى أسفه وتفجعه ، وذكر إخلاص
أبى مسلم وطاعته فقال له المنصور : « خلع الله قلبك وهل كان لكم ملك
أو سلطان أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ؟ » وأمر المنصور فحملت بقايا
أبى مسلم ورمى بها فى دجلة ، وبعث إلى عدة من قواده بجوائز سنوية
وأعطى جميع جنده حتى رضوا ، ورجع أصحابه وهم يقولون : « لقد بعنا
مولانا بالدرهم »

ومرت على هذه الحادثة أعوام وبينما كان المنصور ذات ليلة يسمر مع
جماعة من خاصته قال لهم « ثلاثة كن فى صدرى شفى الله منها ، كتاب
أبى مسلم إلى وأنا خليفة الذى قال فيه « عافانا الله وإياك من سوء » ،
ودخول رسوله علينا وقوله « أيكم ابن الحارثية » ، وضرب سليمان بن حبيب
ظهري بالسياط »

وطوى عصر المنصور ، ودارت الأيام دورتها ، وضرب الدهر ضرباته
وتسنى عرش الخلافة أحد أحفاده وهو عبد الله المأمون ، وجلس ذات
ليلة يسمر مع رجال حاشيته ، ودار الحديث على أبطال التاريخ فقال لهم

« أجل ملوك الأرض ثلاثة وهم الذين قاموا بنقل الدول الإسكندر المقدوني ،
وأردشير ، وأبو مسلم الخراساني ! »

وقد كان قتل أبي مسلم ضرورة سياسية ، ومحاوله جبارة قام بها المنصور
لصد تيار النفوذ الفارسي ، واستفحال أمره ، وأعادها بعده الرشيد بإيقاعه
بالبرامكة ، وكررها المأمون باغتياله الفضل بن سهل . ولكنهم لم يوفقوا في
تلك المحاولة العنيفة التوفيق كله لأن تغيير مجرى الحوادث في كثير من
الأحوال من وراء قدرة الرجال ولو كانوا من طراز المنصور والرشيد
والمأمون .